

# القبيلة وانزياحاتها في الشعر الجاهلي ( من منظور حضاري )

د. عبدالعزيز الحاج مصطفى\*

( القبيلة ) (( مجموعة من الناس تنتمي إلى أب واحد ))<sup>(1)</sup> نشأت في ظروف سابقة ، سبق تكوينها تكوين الأمم والشعوب . وتأتي نشأتها في سياق تطور تاريخي ، قد يعود إلى طفولة الإنسان ، وقد كان يعتمد على قواه الذاتية في الاحتماء من غوائل الطبيعة ، ومن المخاطر التي قد تحيق به من قبل أخيه الإنسان ، والتي بسببها نشأت ( القبيلة ) . وقد عنت مجموعة من العادات والأعراف و التقاليد والأنظمة البدائية التي على أساسها تكونت القبيلة ، ثم أصبحت من بعد صفة لازمة لها ومتطورة عنها . وهي قياسا على أحوال ذلك الزمان تعد الأكثر رقياً وتقدماً . وقد شكلت اللبنة الحضارية الأولى في البناء الحضاري ، ومثلت حالة من التعاون البشري كان لها الفضل في قيام المجتمعات ، وفي الجمع بين أكثر من جنس في دولة واحدة . أما ( العصبية ) فتعد حالة متفرعة عنها ولازمة لها ولإدامتها ، لاسيما بعد أن تعددت القبائل ، وبعد أن بدت معنية بالدفاع عن نفسها . وقد كان وسيلتها إلى كل ذلك ( التعصب ) . (( والتعصب من العصبية . والعصبية أن يدعو الرجل إلى نصره عصبية ))<sup>(2)</sup> . وعند ابن خلدون يعود ذلك إلى أصل الفطرة (( وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنصرة على ذوي

أرحامهم)) <sup>(3)</sup> التي يكون بها التناصر والتعاقد والتظاهر في المواقف . وصورة ذلك أكثر ما تكون وضوحا في العصر الجاهلي ، وقد كانت حياة العرب يومئذ تقوم على (( سفك الدماء ، حتى لكانه أصبح سنة من سننهم ، فهم دائما - قاتلون مقتولون - لا يفرغون من دم إلا إلى دم ، ولذلك كان أكبر قانون عندهم يخضع له كبيرهم وصغيرهم ، هو قانون الأخذ بالثأر ، فهو شريعتهم المقدسة ، وهي شريعة تصطبغ عندهم بما يشبه الصبغة الدينية ، إذ كانوا يحرمون على أنفسهم الخمر والنساء والطيب حتى يثأروا من غرمائهم . ولم يكن لأي فرد من أفراد القبيلة حق ولا ما يشبه الحق في نقض هذه الشريعة . ولا في الوقوف ضدها أو الخروج عليها ، فما هي إلا أن يقتل أحد منهم ، فإذا سيوف عشيرته مسلولة ، وتتبعها العشائر الأخرى في قبيلته تؤازرها في الأخذ بثأرها ، ويتعدد القتل والثأر بينها وبين القبيلة المعادية )) <sup>(4)</sup> ويسبب من ذلك (( قد تتحالف القبيلة مع قبيلة أو قبائل أخرى )) <sup>(5)</sup> يدفعها إلى ذلك نظامها القبلي (( واشتراك أبنائها في أصل واحد وموطن واحد ، وهو موطن متنقل مع الراعي ، وكذلك اشتراكها في تقاليد وأعراف تتمسك بهما تمسكا شديدا )) <sup>(6)</sup> ومع توارث الثارات لا يعدم الأمر من يتدخل و (( يصلح بينهما ويتحمل الديات والمغارم )) <sup>(7)</sup> وقد (( كانوا يسمون حروبهم ووقائعهم أياما ، لأنهم كانوا يتحاربون نهارا ، فإذا جن الليل أوقفوا القتال حتى يخرج الصباح . وأيامهم وحروبهم كثيرة ، وهي تدور في كتب الأدب والتاريخ ، ويقال أن أبا عبيدة المتوفى سنة 211 للهجرة صنف في ألف يوم ومائتين منها كتابا اعتمد عليه من جاءوا بعده . وألف من بعده كثيرون أحصاهم ابن النديم في المقالة الثالثة من الفن الأول بكتابه الفهرست ، وفي كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وشرح حماسة أبي تمام للتبريزي منشورات منها كثيرة . وعقد لها ابن عبد ربه في العقد الفريد وابن الأثير في الجزء الأول من كتابه الكامل ، والنويري في نهاية الأرب فصولا طويلة . وكذلك صنع الميداني في الفصل التاسع والعشرين من كتابه مجمع الأمثال ، إذ تناول منها مائة واثنين وثلاثين يوما ، ضبط أسماءها وذكر القبائل التي اشتركت في كل منها )) <sup>(8)</sup> وتسمى هذه الأيام والحروب غالبا بأسماء الأماكن التي نشأت بجوارها كيوم (( حوزة الأول بين سليم وغطفان ، ويوم اللوى بين غطفان وهوزان ، ويوم الكلاب الثاني بين تميم وبني عبد المدان النجرانيين ويوم الوقيط بين

تميم وربيعة ، وكذلك يوم جدود وذى طلوع والغبيط وزبالة ومبايض والجفار ، ويوم الرحرحان بين قيس وتميم وكذلك الصرائم والمروت والنسار . ويوم الشقيقة بين ضبة وبني شيبان ، ويوم بزاحة بين ضبة وإياد ، ويوم دارة مأسل بينها وبين بني عامر ))<sup>(9)</sup> إلا أن أكثر حروبهم هولا وأشدها فتكا تلك التي دارت بين بكر وتغلب وعبس وذبيان . وقد عرفت الأولى منها باسم حرب البسوس ، والثانية باسم داحس والغبراء ؛ وقد استهلكنا أكثر من جيل وفني بسببهما خلق كثير . وقد اشتعلت حرب البسوس (( بين قبيلتي بكر وتغلب في أواخر القرن الخامس الميلادي وكان سببها اعتداء كليب سيد تغلب - وكان قد طغى واشتد بغيه - على ناقة للبسوس خالة جساس بن مرة سيد بني بكر .

أما حرب داحس والغبراء فكانت في أواخر العصر الجاهلي . وكان السبب في نشوبها سباق على رهان بين الفرسين ، فسميت باسميهما ))<sup>(10)</sup> . ومرد ذلك كله يعود إلى سببين :

**الأول —** عدم وجود الدولة ذات السيادة ، التي تبسط هيمنتها على بلاد العرب عدا بعض الدويلات التي كانت بحكم التابع للفرس والروم كدويلات الغساسنة والمناذرة وكندة في شمالي الحجاز

**الثاني —** البيئة العربية . وقد توزعت على ثلاثة أقاليم<sup>(11)</sup> :

(1) **العربية السعيدة** : وقد كان أهل ذلك الإقليم يعيشون عيشة قرار وتغلب عليهم الحضارة ورفاه العيش . قال تعالى : (( لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ))<sup>(12)</sup> .

(2) **العربية الصحراوية** : وتشمل صحراء الربع الخالي والنفوذ والدهناء ، والبادية الشمالية التي تصاقب بلاد الشام غربا وتمتد شرقا إلى العراق والحيرة .

(3) **العربية الصخرية** : وتضم جبال الحجاز وجنوبي البحر الميت . فضلا عن شبه جزيرة سيناء والمرتفعات المتصلة بها .

أما المناخ فهو في جملته (( حار شديد الحرارة وتكثر في نجد رياح السموم التي تهب صيفا، فتشوي الوجوه شيا . وألطف رياحها الرياح الشرقية ويسمونها الصبا وأكثر شعراؤهم من ذكرها . أما ريح الشمال فباردة وخاصة في الشرق إذ تتحول إلى

صقيع في كثير من الأحيان. والأمطار عامة قليلة إلا في الجنوب حيث تهطل أمطار الرياح الموسمية في الصيف وإلا في الشمال الغربي حيث تهطل أمطار الرياح الغربية شتاء وكثيرا ما يتحول المطر إلى سيول جارفة في اليمن وشمالى الحجاز<sup>(13)</sup>... وتقل الأمطار في الداخل ولقلتها سموها غيثا ... ومتى احتبست الأمطار جفت الأرض وأجذبت وحل الهلاك والفضاء على القطعان والرعاة .. ومن أجل ذلك كثرت عندهم الرحلة في طلب العشب والكأ فترحل القبيلة بإبلها وأغنامها إلى مراعى جديدة . ))<sup>(14)</sup> ومن تعدد الأقاليم وتنوع المناخ ، وظهور التجمعات البشرية المتمثلة بالقرى وبصغار المدن التي كانت تسكنها القبائل العربية ظهر نمطا الحياة العربية الجاهلية : الحضري و البدوي . وكان البدو والحضر معلم الحياة البارز في تلك الأقاليم بعامه . ولكل منهما صفته التي امتاز بها :

فالبدو : وهم النمط الأقدم في التاريخ البشري ، إنما يكون اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم بالمقدار الذي يحفظ الحياة وقد كانت القبلية التي يتشكل كيانهم المستقل من خلالها تمدهم بمقومات القوة وقد (( انبنى عليها كل نظامهم الاجتماعي ))<sup>(15)</sup>. وبدا ما هم عليه من عرف وعادة ينوس في دائرة ذلك وأشدهم فظاظة وغلظة المعنون في البداوة وهم الأعراب وفيهم نزل قوله تعالى : (( الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله ))<sup>(16)</sup> وقد أقاموا حياتهم على المجافاة والتعدي والغارة والسلب والنهب وعدم القرار . والعصبية المفرطة في الجور والعدوان والذي يتخلى منهم عن النصرة يعاب وقد كان (( شعارهم : انصر أخاك ظالما أو مظلوما ))<sup>(17)</sup>

أما الحضر: فهم النمط الأرقى اجتماعيا وهم (( أهل الأمصار والبلدان ومنهم من ينتحل التجارة . وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو لأن أحوالهم زائدة عن الضروري ))<sup>(18)</sup> ولذلك ترق طبائعهم وتلين ويميلون إلى الدعة والمسالمة ، ويبتعدون عن المجافاة وفي القاموس<sup>(19)</sup> : الحضارة . الإقامة في الحضر وهي خلاف البادية . والحاضر خلاف البادي ولذلك اختلفوا سمة وملامح وتباينت الفروق بينهم تباين البيئة العربية ، وتباين الظروف الاجتماعية التي يعيشونها أو التي مروا بها من قبل . وإن

كانوا بسبب انتماءاتهم القبلية وموروثاتهم الطبيعية ومخز ونهم الثقافة قد وسموا بسمة واحدة هي سمة الجاهلية .

ويسبب من خلاف في الأمزجة الناشئة عن الحضارة والبداءة ظهر العداء واستحكم فعند بعضهم (( العربي عصبي المزاج ، سريع الغضب ، يهيج للشيء التافه ، ثم لا يقف عند حد وهو أشد هياجاً إذا جرحت كرامته ، أو انتهكت حرمة قبيلته وإذا احتاج أسرع إلى السيف واحتكم إليه ))<sup>(20)</sup> ويبلغ حبه (( لحرية مبلغا كبيرا ، حتى إذا حاولت أن تحدها ، أو تنقص من أطرافها هاج كأنه وحش في قفص . وثار ثورة جثونية لتحطيم أغلاله والعودة إلى حرية . ))<sup>(21)</sup>

وعند بعضهم الآخر (( إن العرب لما كانوا أتم الناس عقولا وأحلاما ، وأطلقهم السنة وأوفرهم أفهاما استتبع ذلك لهم كل فضيلة ، وأورثهم كل منقبة جليلة ))<sup>(22)</sup> ولا يعدم الرايان الصحة . وقد كانوا على مثل ذلك . وجبلتهم وما فطروا عليه ، ومأثورا تهم ومناقبهم تدل على ذلك ؛ لا سيما أشعارهم التي كانت محض علمهم ومتخير قرائحهم وليس أصدق منها دلالة على حياتهم الاجتماعية وقديما قالوا : (( الشعر ديوان العرب . يعنون بذلك سجلا سجلت فيه أخلاقهم وعاداتهم ، وديانتهم وعقليتهم ، وإن شئت فقل إنهم سجلوا فيه أنفسهم ، وقديما انتفع الأدباء بشعر العرب في الجاهلية ، فاستنتجوا منه بعض أيامهم وحروبهم ، وعرفوا منه أخلاقهم التي يمدحونها والتي يهجونها ، واستدلوا به على جزيرة العرب ، وما فيها من بلاد وجبال وسهول ووديان ونبات وحيوان . وما كانوا يعتقدون في الجن . وما كانوا يعتقدون في الأصنام والخرافات . وألفوا في ذلك جميعه الكتب المختلفة ))<sup>(23)</sup> وبخصوص القبلية وما لها وما عليها وقد راوحت بين أن تكون اللبنة الحضارية الأولى ، أو أن تكون الأكثر بداءة ، تبعا لناسها ، ولما استقرت عليه . يأتي الشعر العربي بعامة بمثابة الشاهد عليهم . وقد صور حياتهم ، وحكى مآثرهم ، ورصد كل ما صدر عنهم من حكمة أو مثل أو سيرة حياة . وكما اختلف نمطا الحضارة اختلف أحوال اختلف الشاهد الشعري ، وتلون بتلون الحياة القبلية . وبانزياحاتها وقد كانت تمر بالحركة ولا تكاد تتوقف . وقد مرت بأطوار ثلاثة :

الطور الأول \_ الطور البدائي . وهو أوغل في القدم ، وألصق بالبادية وبيدائية الحياة ، وقد دل على جفاء وغلظة . وقديما قالوا من بدا فقد جفا . وهو يفتقر إلى الحلم والموضوعية والرؤية الصحيحة لواقع الحياة ، وقد عدوها تقوم على أساس من الغلبة يدل على ذلك قول زهير ابن أبي سلمى في معلقته (24) :

ومن لم يند عن حوضه بسلاحه  
وقول عمرو بن كلثوم التغلبي (25) :

ونشرب إن وردنا الماء صفوا  
ويشرب غيرنا كدرا وطنينا

ففي البيتين دلالة على مفهوم الغلبة الذي كان يشيع بينهم وما كان ينجم عنه من صراع والأبيات التي تلي عند عمرو بن كلثوم أكثر غلظة من سابقتها وقد دلت على شعور بالتمايز الشرس . قال :

فإن قناتنا يا عمرو أعيت  
على الأعداء قبلك أن تلينا  
إذا عض الثفاف بها اشمازت  
وولته عشوزنة زبونا  
عشوزنة إذا انقلبت أرنت  
تدق قفا المثقف والجبيننا

إن عدم المطاوعة والشعور بالغلبة والقوة في مواجهة العدوان ؛ أي عدوان كان ، مع عدم الميل للسلم أو الجنوح إليه أو حتى التفكير بالآخر كائنا ما كان ذلك الآخر ، جعل الأنانية تخيم على واقع الحياة ؛ وكذا الخصومة . ولا مندوحة من ذلك عندهم وكأنه قدر واقع من أقدار الحياة . أو أنه مما فطروا عليه واعتادوه فأصبح من بعض أحوالهم . يدل على ذلك قول دريد بن الصمة (26) :

يفار علينا واترين فيثتفى  
بنا إن أصبنا أو نغير على وتتر  
قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا  
فما ينقضي إلا ونحن على شطر

فالحياة من وجهة نظره لا إنصاف فيها ، وهي تقوم على الغلبة . كالكرة يتعاورها القوم فيسبق إليها الأقوى . وبذلك مامن خيار أمامهم فأما غالب وإما مغلوب وفي إطار ذلك تعظم الثارات وتكثر فيشتفي العدو بعدوه وينال منه . ولا يوفر في ذلك حاجة . فهو يسبي الأولاد ويغنم الأموال ويأتي على ما في الحي من متاع ويدهي أن يصدر ذلك عن

جهل وعن مجافاة ونبو . وقد بدا للقبيلة سلطانها المطلق وللقبيلية دورها الفاعل ، ولم يعد للقبلي منزع ينزع إليه غير ماتراه القبيلة . يصور ذلك قول دريد نفسه: <sup>(27)</sup>

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

فسبل الغي والضلال والرشد مجتمعة تأتي في السياق منحدره من رغبة قبلية ومن سيادة قبلية ومن سلطان قبلي قاهر . وهذه العقلية هي التي جعلت بأسهم بينهم شديدا . وجعلتهم أوسع نكالا في عدوهم وأكثر إيلا ما له ، وأشد إصرارا في ثاراتهم . قال المهلهل بن ربيعة في أخيه كليب وقد قتلته بكر . <sup>(28)</sup>

ولست بخالغ درعي وسيفي إلى أن يخلع الليل النهار  
والأ أن تبيد سراة بكر فلا يبقى لهم أبدا آثار

فالمسألة عندهم غير منتهية . فالقتل يجب أن يتبعه القتل والدم يجب أن يتبعه الدم . ماتعاقب الليل والنهار . وفي ذلك إصرار على الثأر ، وعدم الرضوخ أو الجنوح للسلم . قالت امرأة من ضبة تحض قومها على عدم قبول الديات : <sup>(29)</sup>

ألا لا تأخذوا لبنا ولكن أذيقوا قومكم حد السلاح  
فإن لم تتأروا عمرا بزيد فلا درت لبون بني رياح

والمقصود باللبن هنا الأنعام : الإبل والشاء . وطبيعتهم الجافية والقاسية الموزوعة على الفتكة لم تكن تقبل بديلا عن الدم إلا الدم . يحكى أن مرة بن ذهل بن شيبان لما جاءته ابنته جليلة وكانت قد تأيمت بعد قتل زوجها قال لها : (( ما وراؤك يا جليلة ؟ قالت : ثكل العدد ، وحزن الأبد ، وفقد خليل وقتل أخ عن قليل . وبين هذين غرس الأحقاد وتفتت الأكباد فقال لها : أويكفي ذلك كرم الصفح وغلاء الديات ؟ فقالت : أمنية مخدوع ورب الكعبة . ألبدن تدع لك تغلب دم ربها ؟ )) <sup>(30)</sup> والمقصود بالبدن : الجمال . ويبدو أن النمط البدوي كان يضعهم على سكة لا حيدان عنها وقد كاد العدوان يكون لهم جبلة وقد اعتادوا السلب والنهب والتعدي . (( بل هم إذا لم يجدوا عدوا من غيرهم قاتلوا أنفسهم ولعل خير ما يمثل ذلك قول القطامي : <sup>(31)</sup>

فأى رجال بادية ترانا فمن تكن الحضارة أعجيبته  
قنا سلبا وأفراسا حسانا ومن ربط الجحاش فإن فينا

وكن إذا أغرن على قبيل  
وأغرن من الضباب على حلال  
وأعوزهن نهب حيث كانا  
وضبة إنه من حان حانا  
وأيحانا على بكر أخينا  
إذا لم نجد إلا أخانا

والضباب وضبة : قبيلتان . والقبيل يعني القبيلة . والحلال الأحياء المجاورة . ومن حان حانا : من دنا أجله . والصورة المتلاحقة في النص الشعري تزخر بالخيلاء وتدل على غطرسة وتحد صارخين . وقد كانت القبلية تتمثل بمثل هذه الخصائص التي قد تكون من إفرازات البيئة ومن فلسفة الحياة الجاهلية التي تقوم على القوة والغلبة وشدة البأس والمباهاة والانتصار لبعضهم ولذلك كانوا يرون أن لهم في النصرة حق واجب . إن لم يعطوه طالبوا به بل ربما عير العربي (( قبيلته كلها جراء تخليها عن نصرته . قال قريظ بن أنيف وكان بعض بني شيبان أغاروا على إبله . فاستنجد قومه فلم ينجدوه ، فلجأ إلى بني مازن فأنجدوه . والمراد هنا مازن وتميم . قال : (32)

لو كنت مازن لم تستبح إبلي  
إذا لقام بنصري معشر خشن  
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم  
لا يسألون أخاهم حين يندبهم  
لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد  
كان ريك لم يخلق لخشيته  
يجزون من ظلم أهل الظلم مفرقة  
فليت لي بهم قوما إذا ركبوا  
بنو الشقيقة من ذهل بن شيبان  
عند الحفيظة إن ذو لوثه لانا  
طاروا إليه زرافات ووحدانا  
في النائبات على ما قال برهانا  
ليسوا من الشر في شيء وإن هانا  
سواهم من جميع الناس إنسانا  
ومن إساءة أهل السوء إحسانا  
شدوا الإغارة فرسانا وركبانا

**الطور الثاني -** طور مراجعة الذات : وهو يجمع بين كياسة البدوي وألفة الحضري . وبه حكمة وتعقل ونظر ثاقب في مراجعة الأمور والتعامل معها . وحكمته وتعقله ونظيره حصاد تجارب ، ورؤية مستجدة مع جدة الحياة ومع تقلباتها . وهذا ما يدل عليه قول أعرابي قتل أخوه ابنا له (33)

أقول للنفس تأساء وتعزية  
كلاهما خلف من فقد صاحبه  
إحدى يدي أصابتني ولم ترد  
هذا أخي حين أدعوه وذو ولدي



ففي مجتمع العقلاء المصائب تقاس بحجمها ، والمصيبة الأكبر أن يفقد الرجل ولده وأخاه معا . والأكبر من ذلك أن يصبح عدو قومه أو أحد قتلهم فيكون كمن سدده سهمه إلى صدره أو من أعمل الحراب بجسده فمزقت لحمه وأوهنت عظمه . وعلى ذلك يدل قول الحارث بن ولة الجرمي . وقد فجعه قومه في أخيه.<sup>(34)</sup> قال :

قومي هم قتلوا أميم أخي      فإذا رميت أصابني سهمي  
فلئن عفوت لأعفون جلالا      ولئن سطوت لأوهنن عظمي

فجريمة القتل قد تقع ، وقد يقتل الأخ أخاه والقريب قريبه ، وقد تثور الفتنة وتشتعل الحرب ، ويبقى أمر إطفائها من خصوصية العقلاء . وإلا كان الأمر أدهى وأمر على حد قول نصر بن سيار :<sup>(35)</sup>

فإن لم تطفئوها تجن حربا      مشمرة يشيب لها الغلام

أي : تكثر ضحاياها ، وتوسع دائرتها ، وتأتي على الأخضر واليابس وتنال من بيضة القوم ، وتغرس بينهم الضغائن والأحقاد ، التي لا تمحى . ولذلك كانوا يدركون خطر ذلك وقسوته عليهم . فلا يطيقون التشفي والبوح ببرد الغليل . بل يضيفون إلى المصيبة مصيبة أخرى ، وإلى الأثم ما هو أكثر إيلاما . قال (( قيس بن زهير بن جزيمة العبسي في قتله حمل بن بدر يوم جعفر الهباءة ثارا لأخيه مالك بن زهير الذي قتل في أول الحرب :<sup>(36)</sup>

شفيت النفس من حمل بن بدر      وسيفي من حذيفة قد شفاني  
فإن أك قد بردت بهم غليلي      فلم أقطع بهم إلا بناسني

فهو يصور عاطفة راحته بالانتقام مشوبة بعاطفة الأسى والندم . لأنه ثار من قريبه . وهما منه كالإصبع من كفه وهذه من أنبل العواطف . بل هو شعور بوحدة الدم ورابطة القرى . وهو شعور نما على ما يبدو في وقت متأخر بعد أن ارتقى العربي عواطف ومشاعر وأصبح يفكر بعقله أكثر من ذي قبل . فالمصيبة التي ستلم به جراء القتل لن تكون عليه وحده حسب . ومد يده إلى أخيه بالسوء سيصيبه كفل منه .

الطور الثالث - طور تفعيل الذات الجماعية : وقد غلبت فيه روح الجماعة على روح الفرد . ويعدّ حلقة متطورة من طور مراجعة الذات . تنخل واقع الحياة ، وأفاد من العلائق الاجتماعية التي كانت تتدهور بسبب من فتكة المغيرين ، وتعنّت الموتورين ، فكان له موقف من الحرب بعامة ورأي فيها يتضح ذلك من قول ثلة من شعرائهم . الأول عمرو بن معد يكرب الزبيدي الذي يقول :<sup>(37)</sup>

الحرب أول ما تكون فتية	تسعى بزينتها لكل جهول
حتى إذا حميت وشب ضرامها	عادت عجوزا غير ذات خليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت	مكروهة للشم والتقبيل

والثاني النابغة الجعدي الذي يقول :<sup>(38)</sup>

ألم تعلموا ما تورث الحرب أهلها	وعند ذوي الأحلام منها التجارب
لها السادة الأشراف تأتي عليهم	فتهلكهم والسابحات النجائب
وتستلب المال الذي كان ربه	ضنينا به . والحرب فيها الحرائب

والثالث زهير بن أبي سلمى الذي يقول :<sup>(39)</sup>

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم	وما هو عنها بالحديث المرحم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة	وتضرى إذا ضريتموها وتضرم
فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها	قرى في العراق من قضيز ودرهم

وعلى أساس منه اختلفت نظرتهم للعشيرة عما كانت عليه من قبل . فاتسعت رقعة الحلم ، وكان له فسحة عند كبارهم . فالعشيرة يجب أن تأخذ حقوقها . وأن يكون التعاون معها تسوده روح التسامح والتصالح والقيام بالواجب . ويصور ذلك معاوية سيد بني كلاب الذي يقول :<sup>(40)</sup>

نعطي العشيرة حقها وحقيقتها	فيها ونغفر ذنبها ونسود
وإذا تحملنا العشيرة ثقلها	قمنا به وإذا تعود نعود

والإطلال على واقع العشيرة من زاوية الجماعة لفت الأنباه إلى التعدي وهو قائم بحكم العصبية القبلية فكان لا بد من الوفاق والاتفاق والتجمع في وحدات أقوى تضم قبائل متعددة تتعهد برأب الصدع والأخذ على أيدي الجناة . وقد بدا هذا واضحا في الأحلاف التي عقدوها وفي الحروب التي خاضوها . قال البكري : (( فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة . وتنافس الناس في الماء والكلاء والتماسهم المعاش في المتسع ، وغلبة بعضهم بعضا على البلاد و المعاش ، واستضعاف القوي الضعيف ، انضم الدليل منهم إلى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم في ديارهم ومحالهم فيما يليهم ))<sup>(41)</sup> وهذا بدوره يؤدي إلى المنعة (( فبمجرد أن تدخل القبيلة في حلف يصبح لها على أحلافها كل الحقوق فهم ينصرونها على أعدائها ))<sup>(42)</sup> وتجسد ذلك في قريش . (( فقد اختلف بنو عبد مناف بن قصي و بنو عبد الدار بن قصي في الحجابة واللواء والسقاية والرفادة . وكانت بأيدي بني عبد الدار . فعقد كل قوم على أمرهم حلفا مؤكدا على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا ، فأخرج بنو عبد مناف جفنه مملوءة طيبا فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها ، فتعاقدوا وتعاهدوا وحلفواهم . ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم فسموا بالأحلاف ))<sup>(43)</sup> وقد عرف هذا الحلف باسم حلف المطيبين . والمطيبون هم<sup>(44)</sup> : ( هاشم وأممية وزهرة ومخزوم ) . أما أهم أحلافهم فهو حلف الفضول وقد وثقوا العهد فيه بالماء وسببه أن رجلا من اليمن قدم مكة ببضاعة فاشتراها رجل من بني سهم ولم يعطه الثمن ، فقام في الحجر قائلا : ))<sup>(45)</sup>

بيطن مكة نائي الدار والنفر

ياقصي لظلم بضاعته

بين المقام وبين الركن والحجر

وأشعث محرم لم يقض حرمة

فقام العباس وأبو سفيان حتى ردا عليه . واجتمعت بطون من قريش فتحالفوا على رد الظلم بمكة . ولا يظلم رجل بمكة إلا منعه ، وأخذوا له بحقه . وكان حلفهم في دار ابن جدعان وحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد كان ذلك بمثابة السنة الحسنة . وقد كان يقدم ولاء الحلف على ولاء العشيرة . وأصبح الحليف معنيا بحليفه . يبدو ذلك في قول عبيد بن الأبرص الأسدي<sup>(46)</sup> :

م حليفنا أبدا لدينا

إننا لعمرك لا أيضا

وأروع منه قول أحد الشعراء وقد اعتدى بنوعمه على حليف له يسمى حوشبا .  
قال (47)

سأخذ منكم آل حزن لحوشب وإن كان مولى لي وكنتم بني أبي

ولم يتوقف الأمر عند حد النصرة الفردية . بل تعدى ذلك ليتخذ شكلا جماعيا وعد المتعدي فيه فاجرا . وقد ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أن فجارات العرب أربعة<sup>(48)</sup> اثنان منها في يثرب بين الأوس الخزرج . الأول كان للخزرج على الأوس والثاني وهو يوم بعث كان للأوس على الخزرج<sup>(49)</sup> . وقد تحالف فيه الأوس مع يهود من قريظة والنضير ومع مزينة وتحالف الخزرج مع جهينة وأشجع . وقد اعتزله بعضهم كعبد الله بن أبي الذي عده بغيا وعدوانا وقد كانت الخزرج قتلت ما بأيديها من رهائن يهود وعددهم أربعون غلاما . فكان ذلك سببا في نشوب الحرب . والفجاران الآخران كانا في مكة بين كنانة وقيس عيلان . قال ابن كثير : (( وإنما سمي يوم الفجار بما استحل فيه هذان الحيان كنانة وقيس عيلان من المحارم بينهما ))<sup>(50)</sup> وهذه الفجارات وقد حدثت في مكة والمدينة قبل الإسلام مع مارافقها من أحلاف ، كحلف المطيبين وحلف الفضول ، مثلت حالة من الرقي الاجتماعي في العلاقة ومن نزوع إلى المصالحة والمواءمة ونكران الذات . جاء في البداية والنهاية : لما توافقت كنانة وقيس عيلان إلى الموعد وكانتا قد اتعدتا في قابل (( ركب عتبة بن ربيعة جملة ونادى يامعشر مضر علام تقاتلون ؟ فقالت له هوازن ما تدعو إليه ؟ قال : الصلح . قالوا : وكيف ؟ قال : ندي قتلاك ، ونرهنكم رهائن عليها . ونعفو عن دياتنا . قالوا ومن لنا بذلك ؟ قال : أنا . قالوا : ومن أنت ؟ قال : عتبة ابن ربيعة . فوقع الصلح على ذلك ، ويعثوا إليهم أربعين رجلا فيهم حكيم بن حزام . فلما رأته بنو عامر بن صعصعة<sup>(51)</sup> الرهن في أيديهم عفوا عن دياتهم وانقضت حرب الفجار ))<sup>(52)</sup>

كان هذا في الطور المتأخر ومن أجل الجمع بين بداية العصر ونهايته نورد القصتين التاليتين :

**الأولى:** خاصة بالمهلل سيد ربيعه . ذكر ابن الأثير<sup>(53)</sup> : أن مرة لما قتل جساس أرسل إلى مهلل إنك أدركت ثأرك وقتلت جساسا فاكفف عن الحرب ، وأصلح ذات البين ، فهو أصلح للحيين . فلم يجبه إلى ذلك . وكان الحارث بن عباد قد اعتزل الحرب ولم يشهدا فلما قتل جساس وهما م ابنا مرة . حمل ابنه بجيرا على ناقة وكتب منه إلى مهلل : إنك قد أسرفت في القتل وأدركت ثأرك سوى ما قتلت من بكر وقد أرسلت ابني إليك فإما قتلته باخيك وأصلحت بين الحيين ، وإما أطلقته وأصلحت ذات البين فقد مضى من هذه الحروب من كان بقاؤه خيرا لنا ولكم . فلما وقف على كتابه أخذ بجيرا وقتله وقال بؤب شمع نعل كليب<sup>(54)</sup> . فلما سمع أبوه بقتله ظن أنه قتله بأخيه ليصلح بين الحيين . فقال :

نعم القتل قتيلا أصلح من ابني وائل . فقيل : إنه قال بؤب شمع نعل كليب . فغضب عند ذلك الحارث بن عباد وقال :

قريا مريط النعامة مني      لقت حرب وائل عن حيال

وهكذا عادت الحرب كما بدأت وكان كليبا مات ليلته . بسبب من فعل أحمق ، ومن جفاء وغلظة قل نظيرها في تاريخ العرب .

**الثانية :** خاصة بقيس بن عاصم المنقري . ذكر الميداني في مجمع الأمثال . قال : (( سئل الأحنف ابن قيس هل رأيت أحلم منك ؟ قال : نعم ، وتعلمت منه الحلم . قيل : ومن هو ؟ قال : قيس ابن عاصم المنقري . حضرته يوما وهو محتب يحدثنا ، إذ جاءوا بابن له قتل ، وابن عم له كتيف ، وقالوا : إن هذا قتل ابنك ، فلم يقطع حديثه ، ولا نقض حبوته ، حتى إذا فرغ من الحديث ، التفت إليهم فقال : أين ابني فلان ؟ فجاءه فقال له : يا بني قم إلى ابن عمك فاطلقه ، وإلى أخيك فادفنه ، وإلى أم القتل فاعطها منه ناقة فإنها غريبه ، لعلها تسلوا عنه . ))<sup>(55)</sup>

وفي الختام :

فإن تقليب النظر في هذه الأطوار المختلفة من حياة العرب في الفترة التي سبقت الإسلام ، وقد اختلفت بدايتها عن نهايتها اختلاف هاتين القصتين ، مع اتساع رقعتي الزمان والمكان ، يجعلنا نقرر عددا من الحقائق :

**الحقيقة الأولى :** أن التطور البشري ينتهي إلى أحسن حتى في المجتمعات الناشئة ، وذلك بأصل الفطرة . لأن (( الإنسان مدني بالطبع ))<sup>(56)</sup> ولأنه مايفتا يبحث عن الأنجح والأسلم والأكثر فائدة من أجل تدبير حياته .

**الحقيقة الثانية :** أن النمط البدوي يحفل بالمتناقضات ، ففي الوقت الذي تتوافر فيه الجفوة والغلظة والقسوة وشظف الحياة ، وهي من البدهيات بحكم الطبيعه . تتوافر فيه فسحة من الحلم تكاد تكون بسعة شبه الجزيرة ، ودليله حلم قيس بن عاصم المنقري وقد مر .

**الحقيقة الثالثة :** أن النمط الحضري أكثر ليونة من النمط البدوي ، وأكثر مطاوعة ومرونة ، لأسباب منها البيئة ، ومنها المعاش ، ومنها طبيعة الحياة وهي أسباب ناشئة بالضرورة ، وتعد من سمة الحواضر . ومكة ويثرب تشهدان على ذلك وقد ردتا على الضجار بالتحالف . وتخلصتا من الحرب بالكياسة ، ودليل ذلك ما فعله عتبه بن ربيعة مع بني عامرين صعصعة . وقد جنح إلى السلم وآثر المؤاخاة على الحرب . فدل ذلك على أن الإنسان الحضري أكثر ميلا للتعايش والتصالح منه إلى المجافة والغلظة ، التي كانت إلى وقت متأخر من خصوصية البادية .

**الحقيقة الرابعة :** أن الشعر العربي في حياة العرب قبل الإسلام رسم صورة لما كانوا عليه وأبان جوانب كثيرة من تلك الحياة . وهي إبانة ساعدت من جاء بعد في الأعصار اللاحقة على كشف الخبيء من الكنوز الاجتماعية وقد ردوا على الضجار بالتحالف ، وعلى الحرب بالتسامح ، فكان ذلك بعضا من مكارم الأخلاق التي أتمها الإسلام فيما بعد . وبها أصبحوا سادة الدنيا وأساتذة التاريخ .

## الهوامش :

- (1) لسان العرب . ابن منظور . دار إحياء التراث العربي . الطبعة الثالثة بيروت . 1400 هـ - 1980 م . (ق ب ل) .
- (2) المصدر السابق : مادة عصب .
- (3) مقدمة ابن خلدون . دار القلم . بيروت الطبعة السادسة 1406 هـ - 1956 م . ص 128 .
- (4) تاريخ الأدب العربي - شوقي ضيف . دار المعارف . الطبعة الثامنة 1:62 .
- (5) فجر الإسلام . أحمد أمين . دار الكتاب العربي . بيروت لبنان . الطبعة العاشرة . ص 4 .
- (6) المصدر السابق 1:57 .
- (7) نفسه 1:62 .
- (8) الكامل في التاريخ . ابن الأثير . دار الكتاب العربي . بيروت لبنان . الطبعة الثالثة 1400 هـ - 1980 م . ص 1 : 414 - 417 .
- (9) السابق 1:64-65 .
- (10) نفسه 1:65-66 .
- (11) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام . جواد علي . دار العلم للملايين . بيروت الطبعة الأولى 1965 م ينظر 1:71 وما بعدها .
- (12) سبأ . الآية 15 .
- (13) تاريخ الأدب العربي 1:17 .
- (14) نفسه 1:20-21 .
- (15) فجر الإسلام : 4 .
- (16) التوبة . الآية : 97 .
- (17) الحياة العربية في الشعر الجاهلي . أحمد محمد الحوفي . دار القلم بيروت . لبنان الطبعة الرابعة 1962 م : 231 .
- (18) مقدمة ابن خلدون : 120 - 121 .
- (19) القاموس المحيط . الفيروز أبادي . الهيئة المصرية العامة للكتاب . 1398 هـ - 1978 م . مادة (حضر) .
- (20) فجر الإسلام : 37 .
- (21) نفسه : 34 .
- (22) نفسه .
- (23) نفسه : 57 .
- (24) شرح المعلقات السبع الزوراني دار مكتبة الحياة بيروت لبنان : 1991 م . ص 153 .
- (25) نفسه : 214 و 215 و 223 .
- (26) تاريخ الأدب العربي 1:61 .
- (27) نفسه .
- (28) الحياة العربية في الشعر الجاهلي : 277 .
- (29) نفسه : 284 .
- (30) الكامل في التاريخ 1:316 .
- (31) فجر الإسلام : 9 .

- (32) الحياة العربية في الشعر الجاهلي : 231 والشقيقة هي بنت عباد بن يزيد بن عوف بن ذهل بن شيبان
- (33) نفسه : 273 .
- (34) نفسه : 280 .
- (35) تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني . أحمد شايب . دار القلم . بيروت . لبنان : 1976 م : 357 .
- (36) السابق 279 .
- (37) نفسه : 275 .
- (38) نفسه : 276 .
- (39) المعلقات : 144 - 145 .
- (40) من تاريخ الادب العربي 1: 60 .
- (41) نفسه : 58 .
- (42) نفسه :
- (43) الحياة العربية في الشعر الجاهلي 288 .
- (44) البداية والنهاية . أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي توفي 774 تحقيق أحمد عبد الوهاب فتّيح . دار الحديث . القاهرة . الطبعة الخامسة 118 هـ - 1998 م : 295 .
- (45) الحياة العربية في الشعر الجاهلي : 287 .
- (46) نفسه : 292 .
- (47) نفسه : 291 .
- (48) البداية والنهاية 2: 268 .
- (49) ينظر أيام العرب ويوم بعثت 73 وما بعد . والكامل في التاريخ : 1: 414 .
- (50) البداية والنهاية 2: 268 .
- (51) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب . القلقشندي . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . ينظر : 301 و 362 و 391 . وفيه بنو عامر بن صعصعة من هوازن العدنانيين وهم من قيس عيلان .
- (52) البداية والنهاية 2: 269 - 270 .
- (53) الكامل في التاريخ 1: 322 .
- (54) نفسه . وفيه بؤب شمع السير الذي يدخل بين الأصبعين .
- (55) مجمع الأمثال . الميداني . الطبعة البهية المصرية : 1 : 201 .
- (56) مقدمة ابن خلدون : 41 .

